"حزب الشعب" في "منطقة القبائل": من رمضاء "الثوريين" الى نار "الثائرين" (1939-1954)

The Algerian people's party (P.P.A.) inkabylie: from the preponderance of the "revolutionaries" to the seizure of the "maquisards" (1939-1954)

Le parti du peuple algérien (P.P.A.) en Kabylie: de la prépondérance des "révolutionnaires" à la mainmise des "maquisards" (1939-1954)

مصطفى سعداوي[1] Mustapha SADAOUI
جامعة البويرة، salisada@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2019/10/09 تاريخ القبول: 2020/03/08 تاريخ النشر: 2020/06/28

ملخص:

من المعروف أن الشكل السياسي للكفاح ضد الاستعمار في الجزائر كان قد تبلور في عالم المدينة، بيد أن منطقة القبائل وهي جزءٌ أصيل من عالم الريف، كان لها اسهام معتبر في ذلك. إذ ما برحت منذ عشرينيات القرن الماضي تتحول الى معقل أساسي للتيار الوطني الاستقلالي، وعرف هذا التحول تسارعا أكبر ابان سنوات الحرب العالمية الثانية؛ بحيث أفضت التحولات الاجتماعية والاقتصادية.. العميقة التي شاهدتها الى انتشارٍ أوسع لبنى التيار المعني، وتجذيرٍ أعمق لمطالبه، مع تبني وسائل نضال أكثر رديكالية. ما هيأ الظروف لانبثاق قيادة محلية جديدة ألّفت بين أقطابها عدة قواسم مشتركة؛ حيث كان جلّهم شباب في مقتبل من العمر، وينحدرون جغرافيامن القبائل العليا، وينتمون اجتماعيا الى فئات محظوظة نسبيا، كما تردد معظمهم على ثانوية بن عكنون (بمدينة الجزائر)، ألخ.. واصطفت هذه القيادة الى جانب الجناح الأكثر ثورية في ادارة الحزب بزعامة الدكتور دباغين، لذا كان من الطبيعي أن يؤدي إضعاف هذا الجناح عقب سلسلة الازمات التي عصفت بالحزب بين 1949 و1950 الى استبعاد هذه العناصر من قيادة منطقة القبائل. وهذا فسح المجال أمام صعود قيادة أخرى تختلف في كثير من الجوانب عن سابقتها، وفي المقابل كان يجمع بين أفرادها عدة مشتركات، أبرزها: الانتماء الى جماعة الثائرين Maquisards الذين حملوا السلاح ضد الاستعمار واعتصموا بالجبال منذ سنوات خلت، وينحدرون -في الغالب- من القبائل السهلية، كما أن مستواهم

[1] المؤلف المرسل: مصطفى سعداوي، الإيميل: salisada@gmail.com

المنارة للاستشارات
ww

التعليمي جدّ متواضع بالمقارنة مع أسلافهم، ألخ.. وكانت هذه القيادة (الأخيرة) تبدو كما لو أنها متوافقة الى حد بعيد مع ادارة الحزب، بيد أن تطور الأحداث سرعان ما كشف عن تهافت هكذا تصور؛ إذ انحازت في أول فرصة سانحة الى العناصر الثورية التي شكلت قوةً جديدة، وتعاونت معها لتفجير الثورة المسلحة في الفاتح نوفمبر 1954.

كلمات مفتاحية:الاتجاه الثوري، الثائرون. الثورة الجزائرية، حزب الشعب-حركة الانتصار،منطقة القبائل.

Résumé:Nonobstant que la forme politique de la lutte anticoloniale avait pris genèse en Algérie dans les milieux citadins, la Kabylie région rurale par excellence y contribua considérablement. Notons qu'à partir des années vingt dudernier siècle, la région suscitée ne cessa de se transformer en un bastion majeur du courant nationaliste revendiquant l'indépendance. Ce processus accusa une grande accélération au cours de la 2° guerre mondiale, de sorte que les mutations sociaux-économiques qu'elles engendrèrent facilitent la propagation et la radicalisation de ce mouvement en Kabylie. Ce qui favorisa l'émergence d'une direction locale constituée d'éléments à la fleur de l'âge, et dont l'homogénéité renforcée par plusieurs caractéristiques communes telles : l'origine géographique semblable (haute Kabylie), l'affiliation à des groupes sociaux relativement favorisés, le passage par le lycée Ben Aknoun (Alger), etc... Dés le début, cette équipe s'aligna sur les positions de l'aile la plus radicale au sein de la direction du parti et dont le chef de file était le Dr Debaghine. Ceci étant, l'affaiblissement de cette aile suite à une série de crises secouant le parti entre 1949 et 1950, provoqua l'évincement de la direction locale concernée. Cela donna lieu à la montée en puissance d'une nouvelle équipe dirigeante, différenteà bien des égards de ses prédécesseurs, marqués -en parallèle- par maints traits en commun entre ses éléments, tels l'appartenance au groupe des maquisards déjà en révolte contre le colonialisme depuis plusieurs années, ajouté au fait qu'ils sont quasiment tous issues de la basse Kabylie, sans oubliés leurs niveau d'instruction très modeste comparé à leurs prédécesseurs... De prime abord, cette nouvelle direction laissait croire qu'elle était en parfaite symbiose avec l'administration du parti, mais l'évolution des événements révéla rapidement l'illusion d'une telle croyance. Chose confirmée par son alliance, dés la première occasion présentée, avec les activistes qui avaient formé une nouvelle organisation, ainsi que sa contribution décisive à l'enclenchement du processus insurrectionnel du 1° novembre 1954.

المنارة للاستشارات

ww

Mots clés :PPA-MTLD, Kabylie, Maquisards, Révolution Algériennerévolutionnaires.

Abstract:

Notwithstanding that the political form of the anti-colonial struggle had originated in Algeria in urban areas, the Kabylie rural region par excellence contributed considerably. It should be noted that from the twenties of the last century, the above-mentioned region never ceased to become a major bastion of the nationalist current claiming independence.This process was greatly accelerated during World War II, so that the social-economic changes that they engendered facilitated the spread and radicalization of this movement in Kabylia. This favored the emergence of a local command composed of elements in the prime of life, and whose homogeneity is reinforced by several common characteristics such as: the similar geographical origin (high Kabylia), the affiliation to social groups relatively favored, the passage through the high school Ben Aknoun (Algiers), etc .. From the beginning, this team aligned itself with the positions of the most radical wing in the party administration, led by Dr. Debaghine.This being so, the weakening of this wing following a series of crises shaking the party between 1949 and 1950, it provoked the eviction of the local management concerned.This led to the rise of a new management team, different in many ways from its predecessors, marked - in parallel - by many traits in common between its elements, such as membership of the group of "maquisards" already in revolt against colonialism for several years, added to the fact that they are almost all from low Kabylie, without forgetting their level of education very modest compared to their predecessors ... At first glance, this new direction let believe that it was in perfect symbiosis with the party administration, but the evolution of events quickly revealed the illusion of such a belief. This was confirmed by its alliance, from the first opportunity presented, with the activists who had formed a new organization, as well as its decisive contribution to the initiation of the insurrectional process of November 1, 1954.

Keywords: Algerian Revolution, Kabylie, Maquisards, PPA-MTLD, revolutionaries.

المنارة للاستشارات

ww

تمهيد:

عرف النضال الوطني (الجزائري) في منطقة القبائل بين عشرينيات ومنتصف القرن الماضي تطورات حاسمة جعلته على أهبة الاستعداد لتدشين مرحلة الكفاح المسلح ضد الاستعمار الفرنسي أواخر 1954. وكانت هذه التطورات -في الواقع- قاسما مشتركا بين مختلف مناطق الوطن، بيد أن المؤرخ -وهو ينظر الى الوقائع من زاوية خصوصيتها[1] بينما يلمحها سواه من منظور عموميتها- لا يعدم أن يرصد تفرد التطورات التي اختصت بها المنطقة المذكورة بثلاث مميزات:

1- على الرغم من ارتباط ظهور الشكل السياسي للنضال الوطني ضد الاستعمار بانتقال مشعل المقاومة من عالم الريف الى عالم المدينة، إلا أن منطقة القبائل، وهي منطقة ريفية بامتياز، ظلت نخبها تضطلع -ومنذ البدء- بدورٍ رئيسٍ في هذا الشكل الجديد من المقاومة.

2- عرفت "حركة الانتصار-حزب الشعب" PPA-MTLD سنة 1949 أزمة حادة عُرفت بـ "الأزمة البربرية"، والملفت للانتباه أن المتورطين في هذه الأزمة، سواء داخل الوطن أو في المهجر، ينحدرون – حصرا- من منطقة القبائل.

3- أشرف على انطلاق العمل المسلح ليلةَ الفاتح نوفمبر 1954 كوادرٌ سابقون في المنظمة الخاصة، وذلك على مستوى كل المناطق التاريخية لجيش التحرير، عدا المنطقة الثالثة (القبائل) التي انفردت بخضوعها لقيادة الثائرين Maquisards.

وبغية اختراق كُنه هذه الخصوصيات واستيعاب خلفياتها وتبعاتها، لا مناص من وضعها في اطارها التاريخي، والسعي الى إدراكها من حيث هي عموميات مخصصة (أو معينة).

1- معقل الحركة الوطنية الراديكالية:

ترجع جذور التنظيم الذي أطلق العمل المسلح ليلة أول نوفمبر 1954 الى عام 1926، حيث شهد هذا التاريخ ظهور نجم شمال إفريقيا الذي طرح لأول مرة وبصيغة واضحة مطلب الاستقلال بكل الوسائل. وقد تأسس هذا الحزب في فرنسا على يد مهاجرين جزائريين، العديد منهم ينحدرون من منطقة القبائل. ويعود "الحضور القبائلي" القوي داخل هذا الحزب[2] الى عاملين رئيسيين:

[1]- يقول ميشليه: "كلما عين التاريخ، وخصص وميز، كلما كان- تاريخا حقا". ويؤكد أرون: "أن الواقعة الخاضعة تماما للقوانين المتواترة ليست حدثا تاريخيا". وهذا يعني أن المعرفة التاريخية بوصفها "علم الأشياء التي لا تتكرر" تهتم -خلافا للمعارف العلمية الأخرى- بإدراك الإستثنائي والخاص، لكن من حيث إنه عام معين ومخصص.

[2]- على سبيل المثال لا الحصر، كان المكتب السياسي (أو اللجنة المديرة) للحركة في 1933 تضم خمسة أعضاء هم: مصالي، إيماش، جيلالي، راجف، بانون، وهم جميعا عدا مصالي ينحدرون من منطقة القبائل. إنظر:

المنارة للاستشارات
ww

- كون القبائل يمثلون في هذه الفترة أكثر من أربعة أخماس المهاجرين الجزائريين بفرنسا (Archives CAOM, 4 I 73-74,1945).ومعروفٌ أن الهجرة هي قطيعة مع البيئة الأصلية، وانتقال الى ببيئة أخرى غير مألوفة، يصطدم فيها المهاجر باختلافات جذرية في اللغة والدين والعادات والتقاليد... وهذا يولد لديه احساس حاد بالغربة ومن ثم شعور قوي بالحاجة الى الارتباط مع باقي المغتربين، بغض النظر عن الاختلافات البسيطة الموجودة بينه وبينهم لأنه اكتشف في عالم الغربة أن ما يجمعه بهم أكبر من ذلك بكثير[1]. وهكذا تفضي الهجرة الى ذوبان الانتماءات الجهوية في بوتقة الانتماء الوطني الأوسع.

- سياسية التمركز المدرسي المبكر والمكثف (نسبيا) التي اتبعتها الادارة الاستعمارية في بلاد الزواوة في اطار ما عرف بـ "السياسية القبائلية" الرامية الى عزل المنطقة عن محيطها الوطني.وهو ما كان له تأثير عكسي على المدى القريب والمتوسط، وذلك لكون تلك السياسة، من نحو لم تفضي الى تحسين وضعية "الأهلي المتعلم" الذي لم يكن مسموحا له بالذهاب أبعد من المستوى الابتدائي إلا نادرا، ومن نحو آخر جعلته أكثر وعيا بالوضعية المزرية التي كان يحيا فيها هو وبنو جنسه بسبب الاستعمار[2].

وجملة القول أن الهجرة والتعليم كانتا من أهم العوامل التي ساعدت على بروز الفكرة الوطنية في هذه الفترة المبكرة. والحالة هذه، لم يكن غريبا أن يلعب المنحدرون من منطقة القبائل دورا محوريا في ذلك، بالنظر الى النسبة الكبيرة التي كانوا يمثلونها في أوساط المهاجرين وبين النخب المتعلمة.

وكما هو متوقع، تسربت الأفكار الوطنية الاستقلالية بسرعة من المهجر الى منطقة القبائل. وساعد على ذلك الطابع الفردي للهجرة القبائلية (هو حال الهجرة الجزائرية الى فرنسا ككل)، وما كان ينشأ عنه من تواصل وثيق بين المهاجر وبيئته الأصلية، حيث لا تزال تقيم أسرته، إذ أوجد ذلك "حالة سريانية" سهلت انتقال "عدوى" الافكار الاستقلالية. هذا اضافة الى النسيج العمراني للمنطقة المتميز

- شهادة راجف بلقاسم، في: محمد عباس، رواد الوطنية، (دار دحلب، الجزائر، 1992)، ص 32.

- عبد الحميد زوزو، دور المهاجرين الجزائريين بفرنسا في الحركة الوطنية الجزائرية بين الحربين 1919-1939، (الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، د.ت)، ص، ص: 59، 64-66.

[1]- هذا يذكرنا بقول الشاعر:

أجارتنا انا غريبان هاهنا وإن الغريبَ للغريبِ نسيبُ

[2]- مما يلفت الانتباه في هذا المجال، كون عدد معتبر من كوادر حركة النجم ينحدرون من ناحية لابربا-ناث-إراثن (فورناسيونال سابقا)، نذكر منهم: محمد السعيد جيلالي، بلقاسم راجف، عمار إيماش، رابح موساوي، محمد ربوح، حسين زبار... والمعروف أن هذه الجهة هي من أولى الجهات التي ظهرت فيها المدرسة الفرنسية على المستوى الوطني.

وفي نفس المعنى يقول علي زعموم بخصوص مدرسة قريته (إغيلإيمولا) التي تأسست في 1887 : "تعد قريتنا من القرى الأكثر تسيسا على مستوى الناحية، والمفارقة في تقديري أن المدرسة الفرنسية كان لها اسهام في ذلك." انظر: Ali Zamoum, *TamurtImazighen*. Mémoires d'un survivant 1940-1962, (Ed. Rahma, Alger, 1993), p 76.

المنارة للاستشارات

ww

بتجاور القرى، وسهولة التواصل المكاني الجغرافي الذي أسهم –بدوره- في انتشار واسع وسريع لتلك الأفكار الجديدة. وهو ما تجلى –بوضوح- أثناء جولة مصالي في المنطقة أواخر 1936، حيث حظي بترحاب واسع في كل الجهات التي زارها، كما غصت التجمعات التي نشطها بجموع غفيرة. وبخصوص ذلك، يقول المعني:

"منذ زمان كنت أُمّني نفسي بزيارة بلاد القبائل لمعرفة هذه الناحية الجميلة من وطني التي حدثني عنها صديقي جيلاني، والتي لم أعرفها بعد. إن السيد موساوي رابح هو الذي رافقني في هذه الدورة التي قادتني في أكتوبر إلى تيزي وزو ولاربع اناث اراثن وتيزي راشد. وفي هذه المدينة الأخيرة عقد اجتماع في اطار ساحر أمام الجبال والغابات. فقد كان أمامنا تقريبا خمسة آلاف مستمع...إن مواطنينا الذين كان البعض منهم يعرف فرنسا ونجم شمال افريقيا كانوا ينتظرون بفارغ الصبر بداية الاجتماع. فبمجرد ما بدأت أحضر نفسي، انطلقت التصفيقات... وبعد التجمع أحاط بي وبموساوي المواطنون وهنأونا. فقد كنت مسرورا في الجملة بإقامتي في بلاد القبائل"(مصالي، 2006: 211).

وبعد عشر سنوات ونيف، سيعود مصالي في زيارة أخرى أطول مدة، وأوسع نطاقا، وأبلغ تأثيرا. وفي انتظار ذلك، مضت أفكاره –أول الأمر- تتجذر في المنطقة رويدا رويدا، ثم فجأة استحالت الى تيار جارف أخذ يكتسح المنطقة من أقصاها الى أقصاها تحت تأثير تطورات الحرب العالمية الثانية التي حطمت العديد من الخرافات، وحررت الطاقات التي طالما كبلتها.

وكانت أولى تلك الخرافات، "خرافة فرنسا التي لا تقهر"، حيث انهارت القوات الفرنسية بعد خمسة أسابيع انهيارا كاملا أمام ألمانيا في حرب مهزلة لم يكن يتوقعها أحد. وهو ما خلف وقعا إيجابيا على نفسية الجزائريين، حيث حررتهم من عقدة الرهبة التي كانت تشل إرادتهم الجماعية حتى هذا التاريخ(Yousfi, 1985 : 18)... إلا أنه وعلى الرغم من هذه التطورات الحاسمة،لم يطرأ على سياسة فرنسا في الجزائر أي تغيير يذكر، فالقوانين الاستثنائية ظلت سارية المفعول، والقمع بقي مسلطا على الحركة الوطنية...

بل أسوا من ذلك، مضت الإدارة الكولونيالية تستفز الجزائريين أكثر فأكثر بمعاملاتها العنصرية، في الوقت الذي كان فيه أبناءهم يسقطون في جبهات القتال من أجل فرنسا وتختلط دماءهم بدماء الفرنسيين. ومن أحسن الأمثلة على تلك الاستفزازات، نظام الحصص الجائر الذي وُضع بدعوى مواجهة أزمة التموين التي كانت تتعرض لها البلاد جراء الحرب. وبموجبه، كان يحق للمعمر في تيزي وزو –مثلا- الحصول على حصة من الخبز يوميا، بينما لا يستفيد الأهلي إلا من 4 كلغ من الحبوب (قمح أو شعير) مرة واحدة في الشهر، والأكثر استفزازا إن هذه المحاباة لم تكن قصرا على الكولون فحسب بل شملت أيضا حيواناتهم، إذ خصص لبغل المعمر حصة شهرية قدرها 100 كلغ من الشعير

المنارة للاستشارات
ww

أي ما يعادل حصص 25 فرد من الأهالي(Mekacher, 2008 : 183). وبهذا الشأن، احتفظت الذاكرة الشعبية بتزيوزو بقصة معبرة للملقب "جنوي" "Jenoui"، وهو أحد الجزائريين العائدين من جبهة القتال، عمدت الإدارة المحلية إلى تكريمه رسميا نظير بطولاته في الحرب، غير أن ذلك لم يعصمه من قضاء ليلته يتضوع من ألم الجوع بسبب نظام الحصص "المشؤوم"، وكم كان ألمه أشد عندما علم بالحصة المخصصة لبغل المعمر، فما كان منه في الغد إلا أن عاد إلى الإدارة التي أكرمته بالأمس ليطالبها –في سخرية مؤثرة- بحق الحصول على الجنسية، ليس الجنسية الفرنسية لشروطها التعجيزية وإنما "جنسية بغل فرنسي"(Mekacher, 2008 : 184-187).

وكان من الطبيعي أن تخلق هذه الاستفزازات الكولونيالية جوا عاما من السخط والنقمة وسط السكان، وهو ما لم تتلكأ العناصر الوطنية في استغلاله لصالحها، كما حدث في بغلية -على سبيل المثال- حيث نظم فرع حزب الشعب السري الذي كان يشرف عليه عمر بوداود مسيرة شعبية حاشدة باتجاه مقر البلدية تدعو الى "اقتسام الخبز مع الكولون"(بوداود، 2001: 105-106)[1].

وفي ظل هكذا ظروف، أخذ النضال الوطني يتصاعد بقوة، ولتلافي الوقوع تحت سطوة المنع والقمع الاستعماريتين، تقمص أشكالا مبتكرة، كان من أهمها الشكل الكشفي. فظهرت أولى فرق الكشافة الاسلامية بالمنطقة مع بداية الحرب، ثم مضت تتكاثر بشكل سريع مع مطلع عام 1944 (Archives CAOM, 4 I 73-74,1945). وكانت تقف وراءها –في الغالب- عناصر شابة مقربة من حزب الشعب أو جمعية العلماء (على غرار فرج، لعيماش، لوانشي، أيت أحمد، أولبصير، صالحي...). وقد عرفت هذه الفِرق إقبالا منقطع النظير للانخراط فيها من قبل شباب المنطقة، مما سمح للتيار الوطني بكسب هذه الفئة النشيطة الى صفه. ومنه، استغلال هذه الفِرق كغطاء شرعي لتذكية الروح الوطنية، وبث الأفكار المعادية للاستعمار، وتعليم اللغة العربية، ومحاربة الآفات الاجتماعية المرتبطة بالاستعمار كالإدمان على المشروبات الكحولية (Archives CAOM, 4 I 73-74,1945).

وفي ذات الوقت أخذ نشاط العلماء يتزايد بشكل غير مسبوق في المنطقة، بالأخص في القبائل الصغرى، وهو ما عكسه تكاثر المدارس الحرة ذات التوجه الوطني. ويرجع الفضل في ذلك الى الدعم المالي المعتبر الذي كانت توفره "البرجوازية" المحلية. وبهذا الصدد، يسجل أحد التقارير الفرنسية أن الشيخ الابراهيمي الذي زار بجاية مع مطلع 1945، جمع في ساعات محدودة مليون فرنك لصالح مدرسة الخلدونية. ويضيف التقرير أن "الاحتفاء به كان كبيرا جدّا الى درجة أنه حتى أصدقاءنا الأشد احترازا من الابراهيمي، حضروا خطابه، ووقعوا صكوك بقيمة 25 ألف فرنك" (Archives CAOM, 4 I 73-74,1945). ويشير نفس التقرير الى أنه في "قلعة بني عباس" جُمع مبلغ 200 ألف فرنك في لحظات

[1]- شهادة عمر بوداود، في: محمد عباس، فرسان الحرية، (دار هومة، الجزائر، 2001)، ص-ص: 105-106.

المنارة للاستشارات
ww

قلائل، بينما في نفس الوقت، وفي مكان غير بعيد، في "إغيل علي" بالتحديد، رفض الأعيان الوطنيون الاكتتاب لصالح الجنود المسلمين الجرحى في الحرب." (Archives CAOM, 4 I 73-74,1945).

وبلغ هذا النضال الوطني ذروته في مارس 1943 مع ظهور حركة "أحباب البيان والحرية" التي انصهرت في بوتقتها جهود حزب الشعب وجمعية العلماء وجماعة النخبة. وجديرٌ بالتنويه أن هذه الحركة في بلاد القبائل لم تكن مجرد ظاهرة سياسية بل كانت تعبيرا عن تحولات اجتماعية عميقة؛ هذه أهمها:

1- وصول خميرة الوطنية الى أعماق الريف القبائلي، حيث امتدت هذه الحركة الجماهيرية –بسرعة- من المدن كتيزي وزو وبجاية... الى الأرياف، ومن مناطق الفوران الديني والسياسي التقليدية الواقعة على الأطراف كقرقور وتازمالت ومايو (امشدالة حاليا)... نحو المركز (Archives CAOM, 4 I 73-74,1945). وتشكلت فروع لها في كل مكان تقريبا؛ في المدن الصغيرة وأيضا في القرى النائية، وجمعت بين الفلاحين والموظفين الصغار، كما ضمت الأثرياء الجدد الى جانب العائلات الكبيرة. فأخذت أصداء الاناشيد الوطنية تتردد عاليا في جبال ووديان المنطقة، وأضحى "مصالي" موضع تمجيد؛ فهو "إزمكزماون"(أسد الأسود) (Guenoun, 1999 : 100) حينا و"أمشافع لزاير"(منقذ الجزائر) (Guenoun, 1999 : 100) حينا آخر... هذا علاوةً على بروز سلوكيات جماعية جديدة أقلقت كثيرا الإدارة الاستعمارية، على غرار اتخاذ مؤسسات "ثاجماعث" في عدد من قرى "لربعا-ناث-اراثن" في 1944 قرارا يقضي بمقاطعة مقاهي الكولون (Archives CAOM 91/ 1F/ 205-206, 1944).

2- انخراط أغلب نخب المنطقة في هذا الفعل الوطني الجديد، ويمكن أن نصنف هذه النخب الى ثلاث مجموعات رئيسية:

- النخبة الثقافية: وتتألف –أساسا- من الشباب المتعلم في المدارس الفرنسية والمنحدر في الغالب من عائلات مرابطية، أو عائلات موالية للإدارة، حيث انبثقت من صفوفه أغلب قيادات الكشافة الاسلامية، ومسؤولي فروع حركة أحباب البيان (Archives CAOM, 4 I 73-74,1945) (أمثال أولبصير من نواحي تازمالت، وصالحي من قرية الشرفة بالقرب من عزازقة، وأيت احمد من عين الحمام، ومحمد السعيد معزوزي من تيقزيرت(معزوزي، 1992: 193) ...)
- النخبة الاقتصادية: وتمثلت -بشكل خاص- في الأثرياء الجدد الذين جمعوا ثروات هامة من ممارسة التجارة خلال سنوات الحرب. وهم لم يكونوا يشعرون بأي دِيْن تجاه الإدارة الاستعمارية التي لم يكن لها اي فضل في نجاحهم الاقتصادي، ، لذا كانوا لا يترددون في توفير دعمٍ مالي سخي للعلماء ولأحباب البيان. وعلاوة على القوة المالية، كانوا يحظون أيضا بنفوذ

المنارة للاستشارات
ww

اجتماعي هام، ويعود ذلك: من جهة لترفعهم عن الخصومات التقليدية السائدة بين القرى والتي طالما حُبست الحياة العامة في بلاد القبائل في نطاقها، ومن جهة أخرى الى توفرهم على شبكة واسعة من المتعاملين والزبائن في كل جبال المنطقة، ما كان يضمن لهم مقدرة معتبرة على التأثير في الجماهير (Archives CAOM, 4 I 73-74,1945).

- النخبة الاجتماعية: ونعني بها العائلات الكبيرة التي كانت موالية تقليديا للادارة الاستعمارية، لكن في هذه الفترة انضم العديد من ممثليها الى حركة أحباب البيان، وهنا يكفي أن نذكر اسمي عبد المجيد أورابح وعلاوة بن علي الشريف (Archives CAOM, 4 I 73-74,1945)، وهما زعيما أكبر عائلتين في بلاد القبائل؛ على التوالي عائلة أورابح وعائلة بن علي الشريف.

3- ونظير هذا الفعل الوطني المتنامي وبسببه، كان الحضور الفرنسي في المنطقة يعرف تراجعا متسارعا؛ فزيادة على التحلل البطيء للاستيطان الزراعي (الريفي) الذي بدأ منذ ما يقارب العقدين، أخذت – بدورها- التجمعات الحضرية الهامة مثل تيزي وزو تفقد عائلاتها الأوربية القديمة التي أمسى أبناءها يفضلون الانتقال الى المدن الكبرى، وهذا مقابل تزايد مستمر في أعداد التجار وأصحاب المهن الحرة من أصل قبائلي (Archives CAOM, 4 I 73-74,1945). والأخطر من كل ذلك –في نظر روبير مونطاني- هو ما ترتب عن الحرب (العالمية الثانية) من مغادرة ثلاث أرباع المعلمين الفرنسيين للمنطقة بينما بقي نظراءهم القبائل في مناصبهم (Archives CAOM, 4 I 73-74,1945).

وكانت هذه التحولات الاجتماعية -في الواقع- تجسد المحتوى الحقيقي لذلك الاطار الجماهيري المسمى "حركة أحباب البيان والحرية". لذا عندما سيتمّ تحطيم هذه الحركة، فإن المد الوطني لن يتوقف وإنما سينتقل الى مرحلة جديدة، وهو ما تأكد عقب حوادث الثامن ماي 1945 الدامية.

وكانت هذه الحوادث قد انطلقت من مدينة سطيف الواقعة على الحدود الجنوبية-الشرقية لمنطقة القبائل، ثم سرعان ما شملت جهات عديدة من القبائل الصغرى كخراطة وقرقور وبعض نواحي بجاية (Archives CAOM, 93/ 4207 & 4208, 1952)... لكنها لم تصل الى القبائل الكبرى إلا بعد أن تلقت هياكل حزب الشعب فيها –على غرار باقي جهات الوطن- أمرا من قيادتها الوطنية بإعلان ثورة عامة ابتداءً من ليلة 23 ماي 1945، وذلك قصد التخفيف على المناطق التي كانت ترزح تحت وطأة قمع منقطع النظير منذ الثامن ماي 1945(معزوزي، 1992: 193). ولتأطير هذا العمل الثوري المرتقب، استنجدت قيادة الحزب المحلية بالطلبة الوطنيين، وهو ما تجاوب معه عدد منهم (عليلعيماش، حسين أيت أحمد، سعيد شيبان، عمار ولد حمودة، عمر أوصديق)(أيت أحمد، 2002: 43-44؛ زروالي، 2001: 39). وهكذا انطلقت التحضيرات بشكل حثيث، لكن قبل الموعد المحدد، وصل

المنارة للاستشارات
ww

أمر مضاد يلغي الأمر الأول القاضي بالشروع في العمل المسلح. بيد أن هذا الأمر الجديد وصل الى منطقة القبائل متأخرا جدّا، لاسيما الى القبائل السهلية، فلم يُبلغ لناحية ماكودة –مثلا- إلا ساعة واحدة قبل تنفيذ الأمر الأول، أي بعد انطلاق المناضلين نحو الأهداف المحددة(زروالي، 2001: 39). وهو ما أدى الى اكتشاف السلطات الاستعمارية المحلية ما كانت تخطط له العناصر الوطنية، فسارعت الى فرض حصار على المنطقة، وشن حملة قمع واعتقالات واسعة النطاق. وردّا على ذلك تشكلت في المنطقة أفواجا مسلحة، وشرعت في تصفية غلاة الكولون، وأعوان الإدارة من حراس الغابات وقياد وباشاغوات. وفي هذا الاطار، تمت عدة عمليات من أبرزها عملية اغتيال قايد برج منايل، ومحاولة اغتيال الباشاغاأيت علي(معزوزي، 1992: 194-195). وهو ما أدى الى تصاعد القمع أكثر، ليفضي الأمر الى تدمير شبه كامل لهياكل الحزب في الناحية، واعتقال معظم قياداته المحلية وحتى الجهوية، كعلي حاليت مسؤول مقاطعة القبائل الكبرى، ومحمد زروال مسؤول القبائل السهلية، ومحمد بلونيس مسؤول برج منايل، ومحمد اوشيش مسؤول ذراع الميزان(أيت أحمد، 2002: 52-53).

وعليه، فقد كانت إحدى أهم انعكاسات حوادث الثامن ماي 1945 على حزب الشعب في منطقة القبائل الكبرى، هو حدوث تغيير جوهري في قيادته. إذ حل محل حاليت على رأس المقاطعة والي بناي الذي استدعى كل من لعيماش، وأيت أحمد، وولد حمودة، وأوصديق، ومدغري... لمساعدته(أيت أحمد، 2002: 52-53). ويكشف تأمل بسيط في هذه التركيبة البشرية الجديدة، أن مقاليد الحزب على مستوى القبائل قد انتقلت جغرافيا من القبائل السهلية الى القبائل العليا، واجتماعيا من فئة العمال والفلاحين وأصحاب المهن الحرة الى فئة الطلبة (جلهم كانوا كانوا طلبة في "ثانوية ابن عكنون" بمدينة الجزائر). بل أكثر من ذلك، تجسد هذه القيادات الجديدة ثلاث مفارقات ذات دلالات اجتماعية في غاية الأهمية، وهي:

- انتماء أغلب هذه الكوادر الجديدة الى عائلات مرتبطة بالإدارة الاستعمارية (فعائلة أوصديق تضم العديد من القياد[1]، وأيت أحمد والده قايد بآث واسيف، وايضا شيبان كان والده قايد بنواحي مايو...)، لكنهم مع ذلك اختاروا الانخراط في الحزب الأكثر عداءً لفرنسا، والذي يستهدف طردها من الجزائر.

- جمع أغلب هذه القيادات بين صفتين تبدوان متناقضتين؛ فمن جهة هي خريجة المدرسة الكولونيالية التي كانت ترمي الى فرنسة الشخصية الجزائرية، ومن جهة أخرى هي سليلة أسر مرابطية

[1]- كانت عائلة أوصديق إحدى العائلات المرابطية الهامة، وتتواجد بالقبائل العليا (عين الحمام)، وأيضا بالقبائل السهلية (تيقزيرت)، وضمت العديد من القياد، منهم الأغا أوصديق شريف قايد دوار أيتمنقلات، وأوصديق أحمد قايد دوار سيدي نعمان، والقايد أوصديق عزيز. انظر:

Archives CAOM, 915-257, 1953, Monographie politique de la C.M. du Djurdjura, février 1953.

المنارة للاستشارات

شديدة التدين، وحريصة على تنشئة أبناءها في ظل ثقافتها الأصيلة، وتتبع –في الغالب- الطريقة الرحمانية المعروفة بمناوئتها التقليدية للاستعمار.

- على الرغم من أن تعلق هذه المجموعة القيادية الجديدة بالبعد الوطني كان أمرا لا غبار عليه، إلا أنها في ذات الوقت، كانت تعتز –بشكل كبير وغير مسبوق- بإنتماءها الجهوي (القبائلي)، وهو ما يعكسه – على سبيل المثال لا الحصر- إشرافها على نظم وجمهرة أناشيد وطنية باللسان القبائلي(Guenoun, 15 : 1999) (طبعا الى جانب الاناشيد باللغة العربية)، علاوة على تبنيها المطلب الثقافي البربري كما سنرى لاحقا.

وستظل هذه القيادة الجديدة تتحكم في مصير الحزب على مستوى المنطقة من نهاية الحرب العالمية الثانية الى غاية انفجار ما عرف بالأزمة البربرية في 1949، وخلال هذه المدة يتحقق أمران هامان : انتشار واسع لأفكار الحزب وهياكله على مستوى المنطقة، اضفاء صبغة أكثر راديكالية على الحزب محليا ووطنيا.

فيما يخص الأمر الأول، سرعان ما تحولت المنطقة الى معقل للتيار الوطني الاستقلالي، وهو ما أكدته التطورات المتلاحقة:

بدءً بالمقاطعة الواسعة التي قوبلت بها زيارة وزير الداخلية الفرنسي مع مطلع 1946 (جانفي)، حيث نجح حزب الشعب المحظور في فرض "عملية تصحير بادية للعيان في هذه المنطقة ذات الكثافة السكانية العالية"(أيت أحمد، 2002: 71)، كما أُجبر الوزير خلال مروره بمختلف المدن والقرى والطرقات على قراءة الشعارات الوطنية المكتوبة في كل مكان، هذا زيادة على استقبال التلاميذ له في بعض القرى بنشيد "من جبالنا طلع صوت الأحرار" كما حدث في قرية إعزوزن(أيت أحمد، 2002: 71).

وفي المقابل، حظيت زيارة مصالي الى المنطقة في شهري مارس (القبائل الكبرى) وأفريل (القبائل الصغرى) 1947 بحفاوة كبيرة. إذ "كان الرجال والنساء والأطفال ينطلقون قبل طلوع الفجر، ليقطعوا أحيانا عشرات الكيلومترات، حتى يحضروا مهرجانات مصالي أو لمجرد رؤيته يمر. وكان هذا التكريم الجماهيري موجها لفكرة الجزائر المستقلة، والى الرجل الذي كان يجسدها"(أيت أحمد، 2002: 71).

وأشهر قلائل بعد ذلك، حقق ممثلو التيار الوطني الاستقلالي فوزا ساحقا في انتخابات المجالس البلدية ومجالس "الجماعات" (ثاجماعث)، وذلك على الرغم من العقبات المتنوعة والكثيرة التي ما وضعتها في طريقهم الادارة الكولونيالية وأعوانها.

المنارة للاستشارات
ww

وكان كل هذا يؤشر على حدوث تطور نوعي في النضال الوطني؛ حيث أضحى –لأول مرة في تاريخه- يتمتع بدعم قاعدة ريفية عريضة. وتلقي التقارير المعاصرة والصادرة عن الادارة والأمن الاستعماريين أنوارا كاشفة على هذا التطور الخطير. فتقرأ –مثلا- في تقرير بلدية سيباو الأعلى (عزازقة) المختلطة ما يلي: "بفضل الدعاية الناشطة والحاذقة، تفوق مصالي على منافسه فرحات عباس. إذ الى جانب العناصر الوطنية المقتنعة، انضمت اليه العناصر التي خابت آمالها في حركة عباس. هذا بينما لم يعد أصحاب العزائم الفاترة وحتى أنصار فرنسا يجرؤون على إبداء أرائهم أو انتقاداتهم" (Archives CAOM, 915-257, 1953). وذات الوضع في بلدية ذراع الميزان المختلطة، حيث اجتاح الحزب أغلب قراها ودواويرها (مكيرة، بونوح، أيت يحي موسى...) (Archives CAOM, 915-257, 1952)، ففي "إغيلايمولا" –مثلا- تذكر التقارير أن هناك شخص واحد فقط بقي لا ينتمي الى حزب الشعب هو رئيس المركز البلدي (Archives CAOM, 915-257, 1952). وبالنتيجة، أصبحت أغلب هيئات تاجماعث التي تشرف على هذه القرى تابعة للتيار الاستقلالي. ومن ثم أخذت تنحو أكثر فأكثر الى الاستقلال على الادارة الاستعمارية وأعوانها؛ فلا تتعامل مع القايد ولا الحاكم الاداري، ولا ترد على استدعاءاتهما، كما تضغط على السكان لمقاطعة الادارة وتفرض العقوبات على المخالفين (Archives CAOM, 93/4341, 1947). ولم يكن هذا الوضع خاص بناحية ذراع الميزان فحسب، بل يستفاد من الوثائق الارشيفية أنه كان شاملا لمعظم جهات المنطقة بقسميها القبائل الكبرى والقبائل الصغرى. وبخصوص هذه الأخيرة سجلت التقارير عدة حوادث طريفة، وفي نفس الوقت معبرة عن المستوى الحدي الذي بلغته الروح الوطنية في هذا المجتمع القروي. نذكر منها –على سبيل المثال- قيام أعضاء من حركة الانتصار في قرية "سي أحمد وسعيذ" (بلدية الصومام المختلطة) بشراء ثور قصد التضحية به يوم العيد، فكتبوا على ظهره باللون الأخضر الأحرف الأولى لإسم حركة الانتصار، وطافوا به في كل أزقة القرية (Archives CAOM, 93/4341, 1954). وفي نفس البلدية المختلطة، لكن في قرية "إرحابن" هذه المرة، رفض السكان تقديم الماء الشروب لوفد أمني زار القرية، وعندما همّ بالمغادرة ودعوه مرددين الاناشيد الوطنية (Archives CAOM, 93/4341, 1954).

وكما هو متوقع، انعكست هذه التطورات سلبا على الاستيطان، فأخذ يتراجع بوتيرة أسرع من ذي قبل. وهو ما جسده الاقبال المتزايد للكولون على بيع أملاكهم والمغادرة بلا رجعة. ويمكن أن نستشهد -هنا- بمستوطني بلدية تازمالت "الكاملة السلطات"، وعلى رأسهم شيخ البلدية نفسه الذي باع في 1950 مسكنه والهكتارات الأربع المتبقية له لأحد الأطباء الجزائريين[1] (Archives CAOM

[1]- يمكن ايراد العديد في الامثلة بهذا الخصوص:

- على غرار المستوطنة الزراعية "لعزيب نزعموم" في القبائل السهلية التي أسست في 1873، وضمت 53 عائلة من الألزاسواللورين ، الذي لعب دورا رئيسيا في تشجيع استيطان الألزاسيين **Haussonvilliers**وأفراد من الجيش الأفريقي. وتكريما للكونت أوصنفيلي في سيباو الأدنى، أطلق اسمه على المستوطنة رسميا 21 أفريل 1875. غير أنها ثمانين سنة (تحديد في 1953) لم تعد تضم سوى

المنارة للاستشارات

93/4265, 1950). وفي الواقع، كان هنالك تأثير متبادل بين تراجع الاستيطان الزراعي في منطقة القبائل ونمو الروح الوطنية الراديكالية في أريافها، إذ كما كانت هذه الظاهرة الأخيرة تجسد أحد أسباب ومحفزات الظاهرة الأولى، كان العكس أيضا صحيحا؛ حيث أسهم تراجع الاستيطان –بدوره- في انحسار سيطرة فرنسا عن ذلك الفضاء الواسع (الريف) الذي أخذ يتحول إلى محضن كبير لقوى تستعصي على المراقبة والضبط الاستعماريين، وهو ما كان يشجعه (أي الريف) على استعادة دوره الريادي في مقاومة الاستعمار مستلهما ذكريات الانتفاضات والتمردات التي عاشها خلال القرن الماضي ولا تزال حية في ذاكرته الجماعية.

هذه العودة لقوى الريف الى المسرح السياسي بعد تلاقحها مع "التيار الوطني الاستقلالي"، والتي لعبت فيها منطقة القبائل دورا رياديا بحكم عوامل موضوعية عديدة[1]، أخذت تدفع الحركة الوطنية نحو المزيد من الراديكالية (وهو الأمر الثاني الذي تحقق خلال فترة 1945-1949 كما أشرنا اليه أعلاه). وتجلى ذلك بوضوح في الاعتراض القوي الذي سجله كوادر ومناضلو المنطقة على قرار مصالي العائد من المنفى في أكتوبر 1946 والقاضي بالعودة الى المشاركة في الاستشارات الانتخابية، الشيء الذي ولد أزمة حادة داخل الحزب أفضت الى عقد مؤتمر فيفري 1947. وفي هذا الأخير، تميز موقف وفد مقاطعة القبائل براديكالية مفرطة وانتقاد شديد لإدارة الحزب، كما لعب دورا أساسيا في طرح وتبني فكرة التحضير للعمل المسلح (تأسيس المنظمة الخاصة)(سعداوي، 2009: 49-50). إلا ان ذلك لم يكن -كما يذهب إليه البعض- تعبيرا عن خصوصية قبائلية، وانما نتيجة طبيعية لكون هذا الوفد هو الممثل الحصري لعالم الريف في المؤتمر كما يتبين ذلك من دراسة تركيبته البشرية[2]. وبعد المؤتمر بمدة قصيرة، تولى أحد كوادر المنطقة (أيت أحمد) الاشراف على التنظيم السري شبه العسكري التابع للحزب (المنظمة الخاصة)، واستعان بالعديد من رفاقه السابقين (كولد حمودة وأوصديق وبناي...) في هذه المهمة الجديدة. وبشكل عام التفت معظم قيادات المنطقة حول الدكتور الأمين دباغين الذي كان

CAOMعائلتين فرنسيتين، بينما غادرت العائلات الأخرى المستوطنة بعد أن باعت أملاكها في الغالب للجزائريين المسلمين. انظر: **915/88**, « Département d'Alger, Monographie de l'arrondissement de Tizi-Ouzou », octobre 1953.

- في مدينة البويرة التي كانت في الأصل مستوطنة تأسست رسميا في جوان 1872، تشير الاحصاءات الى انخفاض عدد المستوطنين من 1248 نسمة سنة 1936 الى 963 نسمة في 1948 أي بحوالي الربع (23%). وهذا التراجع المتسارع مرده الى تفضيل أبناء العديد من العائلات الأوربية القديمة في المدينة بيع ممتلكاتهم والانتقال الى المدن الكبرى أو الى فرنسا.انظر: CAOM 4I195, Monographie de la commune de Bouira, 21/01/1953

[1]- من جملة هذه العوامل يمكن ان نذكر: القرب الجغرافي من مدينة الجزائر مركز النشاط الوطني، والكثافة السكانية العالية، والنسيج العمراني المتميز بتجاور القرى وسهولة الاتصال المكاني مما يساعد على تكوين الرأي العام والتعبئة بسهولة وبسرعة، اضافةً الى نسبة المهاجرين المرتفعة سواء في فرنسا مهد الحركة الوطنية أو في كبريات المدن الجزائرية...

[2]- نسبة تمثيل سكان الريف في هذا المؤتمرلم تزد عن 16% ، وهي تنحصر في مندوبي منطقة القبائل، وهذا من دون شك يساعد على فهم الموقف المتميز لهذه المجموعة في المؤتمر.

المنارة للاستشارات
ww

يجسد –في تصورها- نموذج "المثقف الثوري"، زيادة على تمثيله للجناح الأكثر راديكالية داخل إدارة الحزب. وأخذ هذا الجناح يضغط أكثر فأكثر على الحزب للتعجيل بالانتقال الى العمل المسلح، وساعدته السياسة الاستعمارية التي صدت كل المنافذ القانونية الى التغيير كما عكست ذلك بجلاء انتخابات 1948 المزورة. وفي هذه الظروف انعقد اجتماع قيادة الحزب الموسع الى قيادة المنظمة الخاصة في "زدين" (أواخر ديسمبر 1948- مطلع جانفي 1949)، وفيه تقرر منح الاولوية للتحضير للثورة المسلحة. وعليه، أصبح المد الثوري يبدو وكأنه بلغ أقصاه، بحيث أضحى الاعتقاد أن موعد الانفجار التاريخي ليس سوى مسألة شهور(أيت أحمد، 2002: 196)، لكن فجأة انفجرت "الأزمة البربرية" التي غيرت مجرى الأحداث.

2- أزمة بربرية أم أزمة نمو التيار الثوري (1949)؟

في 1948 أرسل والي بناي إلى فرنسا طالبا قديما في ثانوية بن عكنون، يدعى محند علي يحي ليواصل دراسته التي أوقفها في 1946 عندما وضع نفسه تحت خدمة الحزب بمنطقة القبائل. وفي باريس نجح هذا الشاب في تسلق درجات المسؤولية داخل فيدرالية الحزب بسرعة كبيرة إذ أصبح في نوفمبر 1948 عضوا في قيادة الاتحادية. وفي ديسمبر 1948 طرح هذا القيادي الجديد على أعضاء لجنة الاتحادية لائحة للتصويت تنص على اعتبار: "الجزائر جزائرية" وتدين "خرافة" "الجزائر العربية الإسلامية"، فصادق عليها 28 عضو من أصل 32. ولم تلبث قيادة الاتحادية أن كسبت إلى صفها في ظرف وجيز أغلبية القسمات التي أصبحت ترفض الولاء لقيادة الحزب بالجزائر (Radjef, 1989 ; Ait Ahmed, 1990 : 178-179). فما كان من هذه الأخيرة إلا أن أنفذت على جناح السرعة مبعوثين لمعالجة المشكلة بعين المكان وهما الدكتور شوقي مصطفاي والنقيب صدوق سعيدي وانضم إليها في فرنسا محمد خيضر وبلقاسم راجف. وواجه هؤلاء صعوبة كبيرة في أداء مهمتهم بسبب سيطرة أنصار النزعة البربرية على أزيد من 80 % من بني الاتحادية، مما فرض عليهم إعادة هيكلتها من الأساس: خلية خلية وقسمة قسمة... (مصطفاي، 1992؛ Radjef, 1989).

وصاحب هذه العملية عدة اشتباكات لاستعادة مقرات الحزب، واستغرقت سنتين كاملتين، وتوجت بالنجاح بفضل تظافر عدة أسباب، منها:

- إبقاء المسألة بين العناصر المنحدرة من منطقة القبائل فقط ومنع دخول أي ناطق بالعربية في الصراع حتى لا يجد الاستعمار منفذا لإثارة صراع عرقي بين الناطقين بالبربرية والناطقين بالعربية(Radjef, 1989).

- وضوح وقوة حجج الطرف الوطني، ونذكر منها على سبيل المثال:

"إن الهدف هو تحرير الوطن ولتحقيق ذلك لابد من الوحدة الوطنية"

"ليس هذا وقت التساؤل من نكون، فالمهم أننا اليوم جميعا مسلمون"(مصطفاي، 1992: 260).

المنارة للاستشارات
ww

"إذا كان النصر مع الإتحاد غير مضمون، فإن الفشل مع الإنقسام أكيد"...[1]

- انتقال أصحاب النزعة البربرية من المطالبة بحق ثقافي إلى هوس معاداة العرب والإسلام وبروز طروحات إيديولوجية متطرفة(Radjef, 1989). مما أدى إلى انفضاض الجموع من حولهم.

وكانت لهذه المعركة الدائرة فيما وراء المتوسط صدى داخل الجزائر، إذ عندما أحس علي يحي بالهزيمة أرسل إلى والي بناي مستنجدا. فتوجه هذا الأخير على الفور إلى وهران ليركب في اتجاه مرسيليا إلا أن الشرطة ألقت القبض عليه(بن علا، 1995؛ 181: Ait ahmed, 1990). وتبع ذلك اعتقال معظم مسؤولي منطقة القبائل الواحد تلو الآخر: عمار ولد حمودة مسؤول "المنظمة الخاصة" للقبائل الكبرى، عمر بوداود مسؤول "المنظمة الخاصة" للقبائل الصغرى، سعيد أوبوزار المسؤول السياسي لناحية تيزي وزو، عمر أوصديق عضو اللجنة المركزية... كما عزل آيت أحمد من قيادة المنظمة الخاصة وعوض ببن بلة(Ait Ahmed, 1990 : 181-190). وكُلف كريم ورفاقه بالإشراف على هياكل الحزب في القبائل، ووضع حد للحركة الإنقسامية الشيء الذي جرى إنجازه في أسابيع قليلة بسبب اقتناع الأغلبية الساحقة من إطارات ومناضلي المنطقة بأن طرح المسألة البربرية في تلك الظروف لا يخدم الإستقلال(عباس، 1991: 135؛ Hamdani, 1993 : 103-104).

ويشد انتباهنا في هذه الأزمة، ورودها في سياق تميز ببلوغ المد الثوري أقصاه، فهناك ولا شك علاقة ما بين الأمرين. لكن ما حقيقتها؟

يقصر الطرح التقليدي تلك العلاقة على الإنعكاسات السلبية التي خلّفتها الأزمة على التيار الثوري مع التأكيد على أنها مجرد تأثيرات جانبية لأن طبيعة الأزمة كانت إثنية . ثقافية. ويعود الترويج لهذا الطرح إلى قيادة الحزب التي فسرت ما حدث على أنه مؤامرة من تدبير البربريستBerbéristes المتأثرين بالدعاية الإستعمارية(Benkhedda, 1989 : 151). وهي تستند في ذلك إلى عدة قرائن، في مقدمتها الرسائل التي بعثت بها بعض العناصر الموصوفة بالبربرية (بناي، أوصديق) من داخل السجن وتضمنت إشارات إلى تنظيم ذي نعرة جهوية يدعى حسب البعض: حزب الشعب القبائلي PPK(مصطفاي، 1992: 259) وحسب البعض الآخر: الحركة الثورية البربرية MRB(لونيسي، 2002: 55-56؛ Guenoun, 1998 : 113).

بيد أن المتهمين ينفون ذلك بقوة، فعلي فرحات الذي جرحه كريم بلقاسم بمسدسه أثناء الأزمة، واستغلت الصحافة الإستعمارية ذلك للترويج لميلاد حزب الشعب القبائلي نشر تكذيبا في

[1]-هذا الشعار كان يردده الرئيس الفرنسي هيريو أثناء الحملة الإنتخابية 1926، انظر: شهادة راجف، في محمد عباس، رواد الوطنية، ص 23.

المنارة للاستشارات
ww

الصحافة، ورد فيه "إن حزب الشعب القبائلي لم يوجد أبدا لسبب بسيط وهو أن لا وجود في الجزائر إلا لشعب واحد، هذا الشعب الذي وإن تمايزت عناصره فهي تعيش في وحدة أخوية وإرادة مشتركة في التحرير الوطني"(لونيسي، 2002: 55-56؛ Guenoun, 1998 : 113). أما التنظيم الذي أشارت إليه الرسائل المذكورة أعلاه، فلم يكن حسب المعنيين سوى جمعية ثقافية أسست بقرية تعروست بالقبائل الكبرى في شهر رمضان من عام 1948 وهدفها "البرهنة تاريخيا على أن الجزائر كانت بربرية وتنتمي إلى تجمع بربري كبير يضم كل بلاد المغرب" وسميت بـ: حركة التجديد البربري MRB(لونيسي، 2002: 56).

هذه المعطيات تدفع إلى التساؤل إن لم يكن ما روج حول الطبيعية الإثنية للأزمة مجرد توظيف انتقائي لجانب من جوانبها لغرض غير معلن. خاصة وأننا نعلم بأن الأزمة لم تكن بسيطة كما توحي بذلك تسميتها وإنما كانت تركيبا معقدا للعديد من التناقضات السياسية والإيديولوجية والاجتماعية والثقافية... غير أن ذلك لا ينفي كون عنصر من عناصرها لعب دور المرّكب Catalyseur. لكن ماهو هذا العنصر؟

إننا إذا نظرنا إلى أنصار النزعة البربرية سنكتشف بأنهم خليط غير متجانس سياسيا وإيديولوجيا واجتماعيا... لكن إذا دققنا النظر في هذا الوسط المشوش سنميز -على الأقل- بين فريقين أساسيين متجانسين:

- فريق يضم عددا من العناصر الوطنية التي انضمت إلى الحزب أثناء الحرب العالمية الثانية (أو قبلها) وتحمل قناعات ثورية راسخة، أمثال: بناي، آيت أحمد، خليفاتي، ولد حمودة، أوصديق...، وهي تطرح المسألة البربرية طرحا ثقافيا لا يتعارض مع المفهومية الوطنية، إذ تدعو إلى اعتبار البربرية مكونا من مكونات هوية الشعب الجزائري إلى جانب الإسلام والعروبة (لونيسي،2002: 55-56؛ Ait Amrane, S.D. ; Ait Ahmed, 1990 : 180, BenKhedda, 1989 :176).

- فريق آخر يتكون من شلة من المثقفين بالفرنسية، جذبتهم إلى الحزببعد الحرب العالميةالثانيةنشوة الشرعية، وجلهم متأثر بالأيديولوجية الشيوعية. وهذا الفريق يطرح المسألة البربرية طرحا إيديولوجيا يتناقض مع التصور الوطني لهوية الشعب الجزائري من حيث أنه ينفي الانتماء "العربي-الإسلامي"(Harbi, 1993 : 64-65 ; Ait Ahmed, 1990 : 178-179 ; Benkhedda, 1989 : 171-172).

ومما تجدر الإشارة إليه، أن الفريق الأول المتناغم إيديولوجيا مع إدارة الحزب كان يتناقض معها سياسيا، إذ كان يطالب بوضع حد للسياسة الانتخابية والانتقال فورا إلى العمل المباشر، لذا كان يجد موقعه الطبيعي في إطار الجناح الراديكالي الذي يتزعمه الدكتور دباغين(لونيسي، 2002: 57؛

المنارة للاستشارات
ww

(Harbi, 1993 : 67). أما الفريق الثاني الذي يتناقض إيديولوجيا مع قيادة الحزب فلم يكن له أي اعتراض حقيقي على توجهها السياسي الإصلاحي بل إن الكثير من عناصره ستلتحق بعد الأزمة بأحزاب إصلاحية كالحزب الشيوعي الجزائري(Harbi, 1993 : 175 ; Benkhedda, 1989 : 66).

ولم يكن يجمع بين الفريقين سوى الرغبة في رد الاعتبار للبعد البربري، مع اختلاف حول مضمونه وعلاقته بباقي الأبعاد وحتى حول أولويته. إذ كان الفريق الأول لا يرغب في طرحه للنقاش في تلك الفترة حتى لا يشوش على القضية الأساسية المتمثلة في الاستقلال[1]. أما الفريق الثاني فلم يكن يرى أي مانع في طرحه وهو الذي سيتولى ذلك.

لكن الغريب أن انعكاسات الأزمة كانت سلبية بالنسبة للفريق الأول وكانت إيجابية بالنسبة للفريق الثاني. إذ أدت إلى إبعاد عناصر الفريق الأول من الهيآت القيادية في الحزب، فطردت أربعة منها من اللجنة المركزية، وأقصي آيت أحمد من عضوية المكتب السياسي ومن رئاسة المنظمة الخاصة، وجمدت فروع هذه الأخيرة التي كان يقودها ولد حمودة في منطقة القبائل(Harbi, 1993 : 66)، كما ألقت مصالح الأمن القبض على أغلب رؤوس هذا الفريق بشكل يثير الحيرة... أما الفريق الثاني فقد استفاد من الأزمة استفادة معتبرة، لأن معركته كانت إيديولوجية ولم تكن سياسية كما توهمت إدارة الحزب، واللّبس الذي أحدثه تهجمها على الفريقيْن دون تمييز، مكنه من التغطية على تهافته الإيديولوجي وخاصة درء تهمة العمالة للاستعمار التي كان يمكن أن تلحق به وتشله على منوال ما حدث لمن سبقوه كبوليفة ولحمق وإيبازيزن(لونيسي، 2002: 33-36)... وذلك باستثمار الرصيد الوطني والثوري للفريق الأول الأمر الذي أعطاه مسموعية Audibilité في المنطقة على مستوى القوة ظهرت أثارها لاحقا على مستوى الفعل.

هذا يجعلنا نستبعد أن تكون طبيعة الأزمة إثنية-ثقافية أي صراع بين التيار البربري والتيار العربي-الاسلامي كما تمّ الترويج له. ونرجح أن تكون الإثنية وغيرها من رموز الهوية وسائطا جرى اللجوء إليها واستثمارها في الحقل السياسي وفقا لما يسميه إيف بوسونYves Besson بميكانيزم استراتيجية الهوية(لونيسي، 2002: 33-36)، وذلك بسبب حالة الصراع الحاد بين التيار الثوري والتيار الإصلاحي داخل حزب الشعب والذي بلغ أقصاه بعد دورة زدين (ديسمبر 1948).

[1]- هذا كان موقف رمضان عبان –على سبيل المثال- حيث قام بجولة في حوض الصومام لتوعية المناضلين ضد أطروحة البربريستأنئذ. لقاء مع **مخلوف تيتوت** (مسؤول فرع المنظمة الخاصة بتازمالت 1948-1950).انظر أيضا:
° رابح لونيسي، المرجع السابق، ص 54.

°A. Hamdani, op.cit, p 103.

المنارة للاستشارات
ww

ومما يزيد في مصداقية هذا التحليل، امتداد الانعكاسات السلبية للأزمة من الفريق الأول إلى التيار الأكثر ثورية في الحزب الذي تمت زحزحته من المواقع الحساسة وتصفية العديد من رؤوسه كدباغين وبوداةوبوقادوم(سعداوي، 2009: 258-261)... في حين قابل الاستفادة الإيديولوجية (الاستراتيجية) للفريق الثاني استفادة سياسية (تاكتيكية) لنظرائه الإصلاحيين داخل الحزب حيث ساعدتهم الأزمة على إحكام قبضتهم على الجهاز المركزي. لكن ما يثير الاستغراب حقا، هو أن إزاحة الكوادر المتحمسة للعمل المسلح في منطقة القبائل لم يفسح المجال لصعود عناصر معتدلة كما جرى على المستوى المركزي، وإنما أفضى الى وضع مقاليد الحزب محليا في أيدي عناصر أكثر التحاما بالعمل المسلح؛ هم الثائرون Maquisards الموصفون في الادبيات الاستعمارية بـ "الخارجين عن القانون" Les hors-la-loi. فالى ما يعود هذا التطور الاستثنائي؟

3- "الثائرون" Maquisards على رأس "حزب الشعب-حركة الانتصار" في "منطقة القبائل":

منذ أواخر القرن 19، أضحت جبال وغابات بلاد القبائل ملاذا للثائرين Maquisards على السلطة الاستعمارية الذين كانوا ينعتون بـ "اللصوص" و"الخارجين عن القانون" كأرزقي البشير، والاخوة عبدون، وأحمد أومري، محمد أرزقي حجالي... وهذا إنما كان يدل على أن فشل المقاومات المسلحة التي حفل بها القرن 19 وآخرها انتفاضة المقراني (1871) لم يفض الى موت فكرة العمل المسلح، وإنما فقط الى انسحابها مكرهة من مستوى الفعل، مع بقاءها حاضرة وبقوة على مستوى التصور والاستعداد. وكان نشاط أولئك الثائرين سواء كفرديات منعزلة أو على رأس مجموعات صغيرة تأكيدا لهذا الحضور، فهو على الرغم من كونه مجرد نكران للواقع الاستعماري بشكل استيهامي، فإن له الفضل في تأمين ديمومة فكرة المقاومة المسلحة في الضمير الجمعي، وذلك ريثما تجد السياق الملائم لتعود كرة أخرى الى مستوى الفعل القائم هنا والآن.

وبدأ هذا السياق يتشكل منذ سنوات الحرب العالمية الثانية، إذ تمّ الاندماج –لأول مرة– بين ظاهرة "الثائرين" والحراك الوطني الذي أخذ ينمو بسرعة في المنطقة. وهو ما كان يؤشر على حدوث تلاقح خطير بين "فكرة الاستقلال" "المتبلورة حديثا في المدينة و"عاطفة التمرد"المتأججة في الريف منذ أمد بعيد، ومن ثم ينذر بنقلة ثورية حاسمة. والملفت للانتباه أن ذلك جرى في ناحية القبائل السهلية Baisse Kabylie الواقعة على تخوم العالمين المتناقضين: عالم "السهول والمدن والاستيطان" وعالم "الجبال والريف و"الأهالي"، وبالتحديد في بلدية "سيدي داود المعروفة" –استعماريا- بـ "آبّوAbbo" أحد رموز الاستيطان الزراعي في القبائل الكبرى. فقد قرر عدد من الشباب المنحدرين من أصول فلاحية والمتأثرين بالأفكار الوطنية، الفرارَ من الجندية، والاعتصام بجبال المنطقة، من أبرزهم: محمد طويلب بن رابح وقالمي محمد بن محمد الذيْن دخلا حياة السرية –حسب وثائق الامن الاستعماري- في 15 فيفري 1944، الى جانب الأخويْن عبديش محفوظ (المولود في 1914) ومحمد (المولود في 1919)

المنارة للاستشارات
ww

(Archives CAOM 91/3F 136, 1947). وما لبثت هذه النواة الأولى الناتجة عن عملية الاندماج المشار إليها أعلاه (بين "ظاهرة الثائرين" والحراك الوطني) تكبر بسرعة ككرة الثلج المتدحرجة من أعلى، مستفيدةً من الفرص المختلفة التي كانت تمنحها إياها سياسة القمع الاستعمارية:

ففي أعقاب الانتفاضة التي لم تتم في 23 مايو 1945 وكرد فعل على حملة القمع التي شنتها السلطات الاستعمارية، نفذ مناضلو ناحية القبائل السهلية عدة عمليات، قدرتها وثائق شرطة الاستعلامات بـ 20 هجوم مسلح، خلف 12 قتيل و9 جرحى (Archives CAOM 91 F 525, 1953). ما أدى الى توقيف بعض منفذي تلك العمليات كمحمد زروالي، ومحمد السعيد معزوزي، وعمار السعدي، وبلجو... والتحاق آخرين كـ: لورجيوي رابح وحداد عمر وأمحمدقريدي... بصفوف من سبقهم من "الثائرين" Mquisards المحتمين بالجبال(حداد، 2001: 72).

واثر زيارة مصالي لبلاد القبائل في مارس 1947، شرعت الإدارة وعملاءها في مطاردة مستقبلي الزعيم، وكان من ضمنهم بلقاسم كريم أصيل دوار أولاد يحي موسى بذراع الميزان الذي تلقى أمر بالمثول أمام قاضي التحقيق بتهمة المساس بالسيادة الفرنسية، فما كان منه إلا أن مزق الاستدعاء وقرر الدخول في حياة السرية ابتداءً من 20 مارس 1947، ومعه ست من رفاقه منهم أودني عمر المدعو موح النشيد ومحمد طالع ومسعود بن أعراب...(عباس، 1991: 133).

وذات السيناريو تكرر مع أعمر آث الشيخ أحد وجهاء وأثرياء دوار "أزرو أوقلال" بعين الحمام (ميشلي سابقا) الذي استضاف مصالي بمسكنه بـ "يخلف أوسامر"، وأقام مأدبة أكل لأزيد من ألف شخص حضروا التجمع الشعبي الذي أشرف عليه ضيفه. ومنذ ذلك الحين، أضحى محط استفزازات ومكائد متكررة من الحاكم الاداري وأعوانه، ما اضطره في آخر المطاف الى اختيار حياة التمرد والسرية، وكان ذلك بتاريخ 7 فيفري 1948(Chikh, 2014 : 52-66).

وقبل هذا التاريخ، كانت قد جرت الانتخابات المحلية في سبتمبر 1947، فانتهزتها السلطات الاستعمارية المحلية لمطاردة المشرفين على الحملة الانتخابية لحزب الشعب-حركة الانتصار، فكان أحد ضحاياها عمار أوعمران من دوار فريقات (ذراع الميزان) الذي قام الدرك الفرنسي بتوقيفه واقتياده الى مركزهم بذراع الميزان، غير أنه تمكن من الافلات منهم ولم يكن أمامه بدّ من الالتحاق بكريم وجماعته(أوعمران،1991: 180-181). وأسابيع قليلة بعد ذلك تعززت صفوف هذه الجماعة –كرة أخرى- بثائريْن جديديْن هما خطاب عمار بن علال وزياني لوناس بن حمود المدعو عمروني من برج منايل، بعد أن قاما رفقة كل من طويلب وقالمي بتصفية أحد أعوان الادارة في 14 نوفمبر 1947 (Archives CAOM 91/3F 136, 1948)...

المنارة للاستشارات

وهكذا دواليك... حتى غدت هذه النسخة الجديدة من الثائرين تمثل رقما صعبا في المنطقة، وبلغ تعدادها في 1949 حسب الامن الاستعماري حوالي 20 نفرا (Jauffret, 1998 : 529)، لكن شهادتي كل من أوعمران وأيت أحمد تتفقان على أنهم كانوا زهاء 50 رجلا(أوعمران،1991: 181؛ أيت أحمد، 2002 : 159). وهذا الرقم الأخير هو الأقرب –بلا شك- الى الواقع، إذ إضافة إلى أسماء من سبقت الاشارة إليهم أعلاه وهم 17 نفرا، يمكن أن نعدد آخرين كثيرين ك : على ملاح، حسين حموش المدعو موح الطويل، حسين شادلي، أكلي بابو، محمد حمزاوي، عمار شرشار، أعراب عمار، محمد ثاحانوت، عمار حوسيني المدعو عمار القايد، علي ربيع المدعو علي لطرش، موح السعيد المولود، ألخ...

ومهما يكن تعددهم، فقد نجحوا في نقل الخوف الى المعسكر الآخر، حيث شرعوا في ملاحقة وتصفية أعوان الاستعمار من آغاوات وقياد وحراس غابات، وأمناء قرى، ومخبرين...وفي هذا الاطار، تشير وثائق الأمن الاستعماري الى حدوث 15 هجوم ما بين 1947 ومنتصف 1948 (Archives CAOM 91 F 525, 1953)، كتصفية القايد بلهول من قرية مناقرة في 13 أوت 1947(Jauffret, 1998 : 170)، واعدام القايد رشداوي محمد من دوار روافع (برج منايل) في 16 نوفمبر 1947(Jauffret, 1998 : 452)... ولعل أكثر هذه العمليات شهرة تلك التي جرت يوم 25 ديسمبر 1947 على الطريق الرابط بين ذراع الميزان وتيزي وزو، ونفذها كريم ورفاقه ضد قريب هذا الأخير؛ القايد سليمان دحمون، وأسفرت عن جرح المستهدف وقتل مرافقه؛ حارس الغابات محمد أعمر(Jauffret, 1998 : 132, 149).

وإزاء هذه التطورات الخطيرة، كان رد فعل السلطات الاستعمارية في غاية العنف؛ حيث شنت على المنطقة حملات قمع واسعة بدعوى مطاردة "الخارجين عن القانون".فأضحت قراهم تتعرض، بعد كل زيارة يقومون بها لذويهم إلى عمليات عقابية عملا بمبدأ المسؤولية الجماعية. وفي هذا الاطار،قام 150 دركي وعناصر من الاستعلامات العامة بتخريب قرية لعزيب نزعمومHaussonvilliers في جويلية 1948، ثم جاء دور منطقة سيدي علي بوناب في سبتمبر 1949 لتتعرض لقمع غير مسبوق خلف 500 مسكن محطم و7000 شخص مشرد أحال المنطقة إلى مسرح للعمليات العسكرية طيلة 15 يوما...(Francis, 1993 : 93).وهو ما أدى–وفق التقارير الأمنية- الى قتل بعض "الثائرين" واستسلام آخرين (Archives CAOM 91 F 525, 1953)، لكن عموما وباعتراف ذات المصدر، ظل أغلب "الثائرين" صامدين في الجبال. الأمر الذي يثير التساؤل حول أسرار هذا الصمود، لاسيما أن هؤلاء الثائرين لم يشكلوا –مطلقا- جماعة منظمة ومزودة بشبكات تواطؤ وقواعد دعم لوجيستي؟

يعود ذلك –بلا شك- الى التضامن العفوي للسكان، لكن أيضا وبالخصوص الى دعم حزب الشعب-حركة الانتصار الذي كان هؤلاء الثائرون مناضلين في صفوفه. وهو ما شعرت به مصالح الامن الاستعماري التي راحت تؤكد في تقاريرها على ما أسمته بـ "تداخل السياسي والاجرامي"، وتزعم بأن "حزب الشعب في ناحية القبائل ما هو إلا عصابة منظمة من المجرمين، هدفها القيام بالاعتداءات"

المنارة للاستشارات
ww

(Archives CAOM 91 F 525, 1953). وفي الحقيقة، إذا تجاوزنا الأحكام المعيارية الواردة في هذه الوثائق، فإن الجوانب التقريرية التي تضمنتها كانت صحيحة الى حد بعيد. إذ –بالفعل- دعم الحزب هو الذي ضمن بقاء هذه الجماعة واستمرار نموها منذ سنوات الحرب العالمية الثانية، فهو ما برح يكفل لها الملاجئ الآمنة، ويوفر لعناصرها بطاقات الهوية المزورة، ويخصصهم لكل واحد منهم منحة شهرية (3000 فرنك) كما يزودهم –أحيانا- بالسلاح والذخيرة(Archives CAOM, 91/ 1F/ 205-206, 1950)... بعبارة أوجز؛ كانت علاقة جماعة الثائرين بالحزب علاقة حياة أو موت.

وكانت هذه العلاقة –فيما يبدو- أكثر انسجاما مع الجناح السري شبه العسكري للحزب (المنظمة الخاصة). وهو ما يعكسه طلب الثائرين -حسب أوعمران- الالتحاق بهذه المنظمة عندما بدأ تكوين هياكلها في المنطقة بين عامي 1947 و1948، لكنّ المسؤولين على المنظمة لم يوافقوا لكونهم "محروقين"(أي معروفين لدى الأمن الفرنسي)(أوعمران، 1991: 181-182). بيد أن هذا لم يحل دون لجوء المنظمة إلى خدماتهم عند الحاجة، كما حدث في عملية تصفية المليشيات السوداء(أيت احمد، 2002: 156-158)، وكذا في عملية الهجوم على بريد وهران(أيت احمد، 2002: 186-187)... وفي المقابل لم تتوان المنظمة في التكفل بهم عندما أصبح تواجدهم بمناطقهم الأصلية مجلية للمتاعب(أيت احمد، 2002: 160-161). إذ قامت –أولا- إدارة الحزب بتحويلهم إلى مدينة الجزائر وإيوائهم عند مناضلي الحزب والمتعاطفين معه. إلا أن هؤلاء الثوار لم ينسجموا مع العائلات التي استضافتهم ولم يستسيغوا وضعياتهم الجديدة المتميزة بالخمول والوحدة، ما حدا ببعضهم إلى العودة إلى الجبل(Harbi, 1993 : 75). الأمر الذي أفزع قيادة الحزب وجعلها توكل حل هذه المشكلة إلى المنظمة الخاصة التي قامت في جانفي 1949 بتوزيع هؤلاء الثوار على هياكلها عبر التراب الوطني، فأرسلت ثلاثة أو أربعة (من بينهم بلقاسم كريم) إلى الأوراس عند مصطفى بن بولعيد، ووجهت البقية إلى القطاع الوهراني الذي تكفل مسؤول "المخ" فيه؛ بن بلة بتوفير ملاجئ مناسبة لهم ووثائق هوية مزورة مع إمكانية الاتصال بعائلاتهم إضافة إلى حرارة الضيافة ودفء المعاملة. بيد أن هذه الوضعيات المريحة لم تجعل الثوار يقلعون عن فكرة العودة إلى الجبل ثانية، وهو ما حدث عندما سكن الأمن الاستعماري في طلبهم.

وتزامنت عودتهم هذه المرة إلى المنطقة مع انفجار ما عرف بالأزمة البربرية التي أدت الى ابعاد القيادة المحلية السابقة[1]، ما فسح المجال أمامهم لتولي مسؤوليات سياسية هامة. وهكذا أصبح كريم منذ 16 أوت 1949 نائبا لفرنان الحنفي القائد الجديد للولايتين الحزبيتين 4-5 (القبائل العليا، القبائل

[1]- جرى ابعاد العديد من القيادات المتهمة بالبربرية وبعضها الاستقال، نذكر منهم: بن لونيس مسؤول الحزب في القبائل السهلية، مدغري مسؤول الحزب في القبائل العليا، أيتم نقلات مسؤول المنظمة الخاصة في منطقة القبائل، وعلي فرحات الذي أطلق عليه كريم الرصاص واخرون...

المنارة للاستشارات
ww

السهلية)(Archives CAOM, 91/ 1F/ 205-206, 1950)، كما وُضعت أغلب الدوائر الحزبية (الست) تحت اشراف الثائرين، وجرى ذلك في الغالب باقتراح من كريم؛ فأسندت قيادة دائرة تيقزيرت للثائر على ربيع، ودائرة تيزي وزو للثائر موح طويل، ودائرة دلس للثائر عمر حداد، ودائرة أعزيبنزعمومHaussonvilliers للثائر عمر أوعمران(Archives CAOM, 91/ 1F/ 205-206, 1950). وفي جانفي 1950، بعد اعتقال المسؤول الحزبي للقبائل الكبرى فرنان الحنفي، تقاسم رئاستها كل من كريم (ناحية القبائل العليا) و أوعمران (ناحية القبائل السهلية)[1]. وفي حدود منتصف هذه السنة أصبح جل مسؤولي الحزب في القبائل الكبرى من "الثائرين"(حداد، 2001: 76).

والمتأمل في هذا التطورات، سيكتشف –بسهولة- أنها مجرد أعراض تؤشر على وقوع تحولات أعمق في المنطقة، هذه أبرزها:

- عودة قيادة الحزب على مستوى منطقة القبائل الكبرى –مرةً أخرى- الى ناحية القبائل السهلية، بعد أن كانت قد انتقلت –كما رأينا أعلاه- في أعقاب حوادث ماي 1945 الى ناحية القبائل العليا. ومن الجدير بالتذكير أن الناحية الأولى (أي القبائل السهلية) تعد المعقل الرئيسي للثائرين، كما أنها أبدت في ماي 1945 استعدادا أكبر للانخراط في ثورة عامة... وكل هذا يؤكد على أنها تتوفر على خامات ثورية هامة، ومرشحة أكثر من غيرها لتكون مهدا للثورة المرتقبة على مستوى بلاد القبائل.

- استبعاد الطلبة من القيادة الجديدة، وبالتحديد طلبة ثانوية ابن عكنون (الجزائر) الذين تحكموا في مصير الحزب على مستوى المنطقة منذ نهاية الحرب العالمية الثانية الى غاية صيف 1949 (الازمة البربرية)، واستعادة الفئة الكادحة من فلاحين مجثوثين وممارسي مهن بسيطة وصغار الموظفين... مقاليد القيادة. وعلى الرغم من وجود توافق موضوعي بين الفئتين حول "مشروع الثورة"، إلا ان فارقا عمليا هاما ناجمٌ عن اختلافاتهما الاجتماعية-الثقافية ما برح يميز بينهما. فقد كانت "فئة الطلبة" تعطي الانطباع بحكم سقفها الثقافي المرتفع وعبر طرحها الثوري المُلِح، وكأنها تتقدم الصفوف وتدعو الفئات الأخرى للحاق بها، فتخلق بذلك مسافة افتراضية بينها وبين الآخرين. وفي المقابل، كانت فئة الثائرين وبالرغم من عزلتها أمنيا، تبدو مندمجة أفضل في الفئات الشعبية المؤهلة لتحقيق المشروع الثوري، وتُجسد امتدادا أصيلا للموروث التاريخي للمنطقة الحافل بأعمال المقاومة[2].

[1]- يذكر حداد أن اعتقال فرنان الحنفي وقع في جانفي 1951، لكن ذلك على ما يبدو خطأ وقع فيه الشاهد أو سهو من مسجل الشهادة، لأن إعتقال فرنان كان في جانفي 1950، أي سنة قبل التاريخ المذكور في الشهادة.انظر: شهادة عمار حداد، المصدر السابق، ص 76.

[2]-وكان هذا التقابل الاجتماعي بين فئة الطلبة والفئة الكادحة يتطابق مع تقابل آخر ثقافي بين أنصار الطرح البربري ومعارضيه، ومن ثم كان يسهم في توتير العلاقة بين الطرفين أكثر فأكثر.

المنارة للاستشارات
ww

- انقلاب العلاقة التقليدية بين "الثائرين" والحزب؛ فبعد أن كان "الثائرون" أداة في يد الحزب يستخدمها لصالح سياسته الانتخابية، أضحت –الآن- آلة الحزب على المستوى المحلي (ولاية القبائل الكبرى) في قبضتهم (أي الثائرين)، وبذلك أصبح بوسعهم توظيفها لا لاعتبارات سياسية تكتيكية كما كان الأمر في السابق، وإنما لتجسيد هدفهم الاستراتيجي المتمثل في الانتقال الى مرحلة العمل الثوري، وهو ما لن يترددوا في القيام به عند أول فرصة سانحة.

وإذا كانت هذه التحولات الثلاث تمثل خطوات متقدمة على الطريق المؤدي الى الثورة، فإن هناك تحول آخر مصاحب لها كان له تأثير عكسي؛ وهو انتقال زمام المبادرة الثورية في المنطقة من كوادر المنظمة الخاصة الى "جماعة الثائرين"[1]. إذ من المعلوم أن هذه الجماعة الأخيرة لم تكن تملك المقدرة على تفجير الثورة، وذلك لسبب بسيط؛ هو افتقادها -بصفتها الذاتية- لأي امتداد تنظيمي خارج القبائل الكبرى[2]. وما كان يزيد هذه المشكلة حدةً، كون قدماء المنظمة الخاصة (بالتحديد بوضياف ورفاقه) الذين راحوا ينشطون في سرية تامة على المستوى الوطني لتفجير الثورة، لم يكن لديهم رصيد كاف من العلاقات مع ثائري منطقة القبائل. وهو ما يلقي أضواء كاشفة على ظاهرتين ميزتا هذه المرحلة هما:

1- المسار الطويل والمتعرج نسبيا الذي سلكته العلاقة بين عناصر المنظمة الخاصة التي خططت لتفجير الثورة في 1954 ومنطقة القبائل، إذ شرعت تلك العناصر –أولا- في عملية التحضير دون منطقة القبائل، وعندما سعت –لاحقا- الى التواصل معها واجهت صعوبات عدة، وعندما ربطت -أخيرا (ماي 1954)- الاتصال معها، استغرق الأمر عدة شهور لبناء علاقات الثقة بين الطرفين (أوت 1954).

2- تفرد منطقة القبائل بإشراف جماعة الثائرين فيها على عملية تفجير الثورة في 1954، بينما أشرف قدماء المنظمة الخاصة -بشكل شبه حصري- على ذات العملية في كل مناطق الوطن الأخرى.

فنحن –إذن- إزاء جماعتين عضويتين متمايزتين، إحداهما تملك إمكانات ثورية هامة لكنها مركزة في حيز جغرافي ضيق (منطقة القبائل الكبرى)، والأخرى إمكاناتها محدودة خارج منطقة الأوراس، لكنها تنظيمها يغطي كل الوطن تقريبا. وفي آخر المطاف، جرى التلاحم بين الجماعتين بفضل تصوراتهما المشتركة والتي كانت نتاجا لاتفاقهما في ثلاث خصائص أساسية:

---

[1]- هذا لا ينفي وجود بعض قدماء المنظمة الخاصة على غرار محمد زعموم (مسؤول سابق على فرع المنظمة الخاصة في ذراع الميزان) ضمن القيادة الجديدة للحزب في ولاية القبائل الكبرى (الولاية 4-5)، لكن علاوة على كون عددهم محدودا جدّا، كانت مسؤولياتهم في المنظمة الخاصة محلية، وبالتالي لم تكن لديهم أي علاقات مع كوادر المنظمة خارج منطقتهم.

[2]- وعلى الرغم من وجود جماعات مماثلة لها في بعض جهات الوطن كما هو الحال في منطقة الأوراس، لكن لم تكن بينها أي علاقات تذكر.

المنارة للاستشارات
ww

1- الموقف من العمل المسلح: فقد كانوا جميعا متحمسين للكفاح المسلح تحمسا يشبه العبادة، وهذا لقناعة راسخة بأنه السبيل الوحيد للخلاص من براثين الاضطهاد الاستعماري، وما عداه مضيعة للوقت وإهدار للجهد واستطالة للمعاناة.

2- الوضعية تجاه سلطات الاحتلال: كان جلّهم من المطلوبين أمنيا، والعديد منهم من المحكوم عليهم بالإعدام أو المؤبد. وهذه العلاقة المتوترة مع السلطات الاستعمارية في حدها الأقصى، وإن أضرت بأصحابها من الناحية المادية، إلا أنها خدمتهم من الناحية النفسية، حيث بددت لديهم أوهام التفاهم بالحسنى مع المستعمِر، وفي نفس الوقت خلصتهم من عقدة الخوف من بطشه إذ "الغريق لا يخاف من البلل"[1]. بل أكثر من ذلك؛ جعلتهم متلهفين إلى "لحظة " بداية المواجهة معه بوصفها اللحظة التي سيتركون فيها دور الطريدة ليقوموا بدور الصياد.

3-العلاقة مع قيادة الحزب: كان يجمع بينهما كذلك سخطهما المتنامي على قيادة الحزب بسبب إصرارها غير العادي على الاستمرار في النضال الشرعي رغم تضافر الأدلة على عقمه. وكان هذا الإصرار بالنسبة لهما يفيد أمرين : الأول أن حالة المطاردة التي يعيشونها ستستمر إلى مالا نهاية، والثاني وهو الأسوأ أن تضحياتهم على غرار تضحيات من سبقوهم ستذهب سدى، ومن ثم لم يكن بد من أن تتبلور لديهما قناعة بحتمية تجاوز هذه القيادة.

لذا عند انفجار أزمة حزب الشعب في 1954، وعلى الرغم من وقوف غالبية كوادر وقواعد الحزب في منطقة القبائل الكبرى الى جانب الزعيم (مصالي)، إلا أن القيادة المحلية ممثلة في "الثائرين" (كريم و أوعمران وقادة النواحي) قررت سرا الانحياز الى قدماء المنظمة الخاصة الذي شكلوا تيارا ثالثا، وذلك بعدما تأكدت من عزمهم على تفجير الثورة.

قائمة المصادر والمراجع:

1. أوعمران عمار (شهادة)، 1991، في محمد عباس، ثوار عظماء، دار دحلب، الجزائر.
2. أيت أحمد حسين، 2002، روح الاستقلال: مذكرات مكافح، تر سعيد جعفر، منشورات البرزخ، الجزائر.
3. بوداود عمر (شهادة)، 2001، في: محمد عباس، فرسان الحرية، دار هومة، الجزائر.
4. حداد عمار (شهادة)، 2001، في: محمد عباس، فرسان الحرية، دار هومة، الجزائر.
5. راجف بلقاسم (شهادة)، 1992، في محمد عباس، رواد الوطنية، دار دحلب، الجزائر.
6. زروالي محمد (شهادة)، 2001، في محمد عباس، نداء... الحق، دار هومه، الجزائر.

[1]- بل أكثر من ذلك دفعتهم تلك الوضعية الى بناء رؤية ايجابية للمستقبل. وبهذا الخصوص، يمكن أن نستشهد بقصة "الثائر" محمد ثاحانوت الذي ألقي عليه القبض في 1954، وأصدرت محكمة تيزي-وزو في حقه عام... حكما بـ 20 سنة حبس مع الأعمال الشاقة، فما كان منه إلا أن صرخ قائلا: "بعد عشر سنوات لن تكون فرنسا هنا". انظر: - Jean Charles Jauffret, op.cit, P 452.

المنارة للاستشارات
ww

7. زوزو عبد الحميد، د.ت.، دور المهاجرين الجزائريين بفرنسا في الحركة الوطنية الجزائرية بين الحربين 1919-1939، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر.
8. سعداوي مصطفى، 2009، المنظمة الخاصة ودورها في التحضير لثورة نوفمبر 1954، دار الأوراق الزرقاء الدولية، الجزائر.
9. عباس محمد، 1992، رواد الوطنية، دار دحلب، الجزائر.
10. عباس محمد، 2001، فرسان الحرية، دار هومة، الجزائر.
11. عباس محمد،1991، ثوار عظماء، دار دحلب، الجزائر.
12. عباس محمد،2001، نداء... الحق، دار هومه، الجزائر.
13. لونيسي رابح، 2002، دعاة البربرية في مواجهة السلطة، دار المعرفة، الجزائر، ط 1.
14. مصالي أحمد، 2006، مذكرات مصالي الحاج 1898-1938، تر محمد المعراجي، منشورات ANEP، الجزائر.
15. مصطفاي شوقي (شهادة)، 1992، في محمد عباس، رواد الوطنية، دار دحلب، الجزائر.
16. معزوزي محمد السعيد (شهادة)، 1992، في: محمد عباس، رواد الوطنية، دار دحلب، الجزائر.
17. Ait Ahmed Hocine, 1990, Mémoires d'un combattant : l'esprit d'indépendance 1942-52, Ed. Bouchère, Alger.
18. Ait Amrane Idir, S.D., Mémoires au lycée de Ben-Aknoun, 1945 : Akkrammisoumazigh, Alger.
19. Archives CAOM 91 F 525, 1953, PRG, District d'Alger, « activités sur le plan criminel du PPA-MTLD », le 23 février 1953.
20. Archives CAOM 91/ 1F/ 205-206, 1944, Rapport n° 76/4 du 26/10/1944 de l'adjudant commandant la section de la gendarmerie à la commune P.E. de Fort National, « Etat d'esprit de la population indigène.«
21. Archives CAOM 91/3F 136, 1947, PRG, Poste de Tizi-Ouzou, « quatre déserteurs parcourent ABBO», le 25 aout 1947.
22. Archives CAOM 91/3F 136, 1948, PRG, Poste de Tizi-Ouzou, « assassinat de deux musulmans ralliés à la cause française », le 12 juin 1948.
23. Archives CAOM 93/4265, 1950, PRG de Bougie, rapport du 15 mai 1950.
24. Archives CAOM, 4 I 73-74, 1945, Robert MONTAGNE, « notes politiques sur la la situation de la Kabylie (15 avril 1945) », rapport confidentiel.
25. Archives CAOM, 91/ 1F/ 205-206, 1950, PRG, « PV d'audition du nommé Bouyahiaouiyahia ben Mouhoub.«
26. Archives CAOM, 91/ 1F/ 205-206, 1950, PRG, « PV d'audition du nommé Fernane Hanafi ben Mohamed.«
27. Archives CAOM, 915-257, 1953, Monographie politique de la C.M. du Haut Sebaou .
28. Archives CAOM, 915-257, 1953, Monographie politique de la C.M. de Draa El Mizan.
29. Archives CAOM, 915-257, 1953, Monographie politique de la C.M. du Djurdjura, février 1953.

المنارة للاستشارات
ww

30. Archives CAOM, 93/ 4207 & 4208, 1952, Monographie politique de Bejaia, Monographie politique du Gergour, Monographie politique de Kheratta .
31. Archives CAOM, 93/4341, 1947, Administrateur de la C.M. de la Soummam, Rapport du 29 aout 1947, propagande politique.
32. Archives CAOM, 93/4341, 1954, P. J. de Bougie, rapport spécial, 07 juillet 1954 .
33. BenkheddaBenyoucef, 1989, Les Origines du 1er nov. 1954, ED Dahlab.
34. Chikh Abdenour, 2014, une vie pour l'Algérie : hommage au martyr de la guerre de libération Amar Ath Chikh (1906-1956), Casbah-Editions, Alger.
35. Guenoun Ali, 1999, « Messali Hadj et les berbéro- nationalistes », in réflexions : MESSALI Hadj 1898-1998 : Parcours et témoignages, ed casbah, Alger.
36. Guenoun Ali, 1999, « Messali Hadj le Zaim calomnié », in Réflexions, Messali Hadj 1898-1998 parcours et témoignages, Ed. Casbah, Alger .
37. Hamdani Amar, 1993, Krim Belkacem lion du djebel, Ed. Bouchène, Alger.
38. Harbi Mohammed, 1993, Le F.L.N. mirage et réalité, Naqd-ENAL, Alger.
39. Jauffret Jean Charles, 1998, La guerre d'Algérie par documments, T2 : les portes de la guerre 1946-1954, SHAT, Vincennes, Paris.
40. Jeansan Francis et Colette, 1993, L'Algérie hors le loi, Ed. ENAG, Alger.
41. Mekacher Salah, 2008, les récits de la mémoire, Tizi-Ouzou le destin d'une ville et de sa région, Ed. El Amel, Tizi-Ouzou, Algérie.
42. Radjef Belkacem (témoignage), 1989, in BenyoucefBenkhedda, Les Origines du 1er nov. 1954, Ed. Dahlab, Annexe N° 29, pp. 325-327.
43. Yousfi M., 1985, L'Algérie en marche, Tome I, ENAL, Alger.
44. Zamoum Ali, 1993, TamurtImazighen. Mémoires d'un survivant 1940-1962, Ed. Rahma, Alger.

المنارة للاستشارات
ww